"فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا"



بقلم الشيخ



حفظه الله

سلسلة أوراق من دفتر سجين

بسم الله الرحمن الرحيم

ضمن سلسلة أوراق من دفتر سجين

(٩)

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾

لفضيلة الشيخ أبي محمد المقدسي حفظه الله

ورشة شموخ الإسلام التحريضية

رمضان ١٤٣٤ هـ – ٨/ ٢٠١٣ م

زنزانتي خير من صاحبت في زمن الظالمون به عبدوا كأوثان

في زنزانتي الانفرادية يحلو تدبرُ كتابِ الله تعالى، فأعيشُ مع القرآنِ أغوصُ على درره، وأجتني جناءه، وأتفيأ ظلاله الوارفةَ، وأحيانًا تخلو الزنزانةُ من أي كتابٍ آخر كنوعٍ من العقوبة وهذا الغالبُ، وأما القلمُ والأوراقُ فلا سبيلَ لها إلا نادرًا جدًّا بموافقة المحققِ أو خفيةً عندما تسنحُ فرصةٌ من الفرص التي قد تتهيأ لسجينٍ قديمٍ عنده بعضُ الخبرات، فليس ثَم غالبًا إلا كتاب الله لم يمنعوه عني إلا مرةً واحدةً ثم ما لبثوا أن أعادوه عاجلاً، ربما ليحاولوا إقناعي بإسلامهم الذي ننفيه وتنفيه حربُهم على الدينِ والشريعةِ بتآمرهم على أهلها وموالاتهم للكفار وتحكيمهم للقوانين الوضعية الوضيعة ومظاهرتهم للموساد والسي آي إيه على الجهاد والمجاهدين إلى آخر قائمة مكفراتهم الظاهرة التي يعرفها كل مَن يعرف توحيده.

ولا شك أن حرمانهم لي من الكتب والصحف والأوراق والقلم مع معرفتهم بنهمي للقراءة وحبي للكتابة هو نقمة منهم عليّ وعقوبة لعزلي عن العالم وحرماني من التواصل مع الدنيا ومحاولة منهم كما حاصروا جسدي بقيودهم وزنزاناتهم أن يحجموا أفكاري ويحصروها في مترين مغلقين من هذا العالمِ الواسعِ الشاسع، ولقد كنت أخرج من الزنزانةِ بعد شهورٍ وربما سنوات فأُفاجأ بأحداثٍ وتطوراتٍ، ودول تغيَّرت وطواغيت هلكوا وآخرون تولوا، وأولاد وُلدوا، وصغار كبروا، وأقارب أو أصدقاء توفوا، ومعالم في البلاد تغيرت، ومخترعات جديدة ظهرت أحتاج إلى تفهمها، إلى غير ذلك من الأمور والأحداث التي أفاجأ بها.

ولكن هذه النقمة تنقلب بتوفيق الله إلى نعمة، وتغدو بتقدير الله من جنس قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ فقد خلاك مولاك من كل شاغل وحبسك مع كتابه وفرَّغك لتأمله، وقُيِّدت لتتدبره بالسلاسل بعد انفلاتك في العالم الخارجي وصخبه وتشعُّبات قراءاتك وتفرُّعات كتاباتك وطوارق مشاغلك. ها أنت الآن لا شغل يشغلك ولا عمل ولا تكليف، دنياك قد حُصرت واختُصرت في مترين من الجغرافيا تقريبًا، والتاريخُ قد توقَّف عندك وحِيل بينك وبين ما تشتهي وتحبُّ من الدنيا، فلا شغل لك شئت أم أبيت إلا العكوف على كتاب الله تعالى، فكُن من عباد الله اختيارًا، كما أنك من عبيده اضطرارًا، وأقبل على كتابه برغبة منك وحضور قلب وإقبال فتُفتح عليك الفتوحُ الربانية وتفيضُ عليك البركاتُ القرآنية، فتنقلب المحنةُ إلى منحة ويصير المكروه محبوبًا. وليالي السجن بل ونهاراته هادئةٌ ما داموا قد انتهوا من التحقيق معك وينتظرون موعد شفائك من آثار التعذيب ليحوِّلوك إلى

محاكمهم، فلا تكاد تسمعُ في السجن صوتًا إلا صوتَ البساطير ذهابًا وإيابًا تحرس ممرات الزنازن وتمنع صدور أي صوت ولو بالصلاة أو بتلاوة القرآن. وبين الفينة والفينة تطلُّ وجوههم المتجهمة بتصنُّع من طاقة الباب لتطمئن، على ماذا؟! على وجود السجين في زنزانته!! ربما. وعندما كانوا يمنعوننا من النوم لأيام من أجل الإدلاء باعترافات بعد أن يمل المحققون من الضرب والتعذيب والعبث في الأجساد، كانت البساطير لا تذهب ولا تجيء في الممرات بل غالبًا تتسمَّر واقفةً بإخلاص قبالةَ طاقةِ الممنوع من النوم ترصده كي لا يغافلها بجلسةٍ خاطفةٍ تُريح جسده المنهك أو باتكاءةٍ مختلسةٍ على الحائط تخففُ من أوجاعه المتراكمة، فقد كان من يُظفر به متكئًا على الحائط أو متورطًا بالجلوس على الأرض يتفنن في معاقبته بأساليب شتى منها مضاعفة مدة تسهيره وحرمانه من الجلوس، هذا غير تسليتهم بالسجين ليقطعوا الملل أو السَّهر، فتارةً يُخرَج السجينُ من الزنزانة ويُؤمر بسكب طشت ماء أو أكثر في مكان قصيٍّ من ممر الزنازن، ويوضع الطشتُ في آخر الممر، ثم يُؤمر بإرجاع الماء المسكوب ولملمته عن الأرض وإعادته إلى الطشت بواسطة إسفنجة صغيرة جدًّا يشفط بها قطرات من الماء المسكوب على الأرض ثم يسير بها إلى آخر الممر ليعصرها في الطشت، وهكذا حتى يُرجع الماءَ المسكوبَ كاملًا ويجففَ الأرضَ بهذه الإسفنجة، وهذا بطبيعة الحال لا يندرجُ عندهم تحت تصنيف التعذيب، فالتعذيب شيءٌ آخر، وإنما هذا نوع من التسلية لهم والإزعاج لك كي تبقى متيقظًا وسط الزنزانة لا تغفو، واقفًا وسط الزنزانة لا تتكئ على جدارها، وهذه الحال قد تمتدُّ إلى أيام بحسب رغبة المحقق في الضغط عليك، فأحيانًا يأمُر بحرمانك من النوم والجلوس فترة إجازته أو عطلة عيد مثلاً ليُباشر التحقيق معك بعد انتهاء عطلته وبداية الدوام وأنت في غاية الإنهاك ليراودك بين الاعتراف والنوم، وأحيانًا يمتد هذا المنع إلى أسبوع أو أسبوعين متواصلين، مع أنه بعد اليوم الرابع تقريبًا يكفي الأمر؛ إذ يكون السجينُ في حكم السكران أو من في عقله خلل، فترى بعضنا لا يدري كم صلَّى وربما صلَّى إلى غير القبلة، وربما غفا وهو ساجد فجاؤوا يصيحون عليه ليوقظوه ويعاقبوه، وكان بعضنا يرى النقاط السوداء على البلاط كأنها حشراتٌ أو صراصير تتحرك، وأحيانًا يرى في الزنزانة أقزامًا أو يرى سقفها مشقوقًا مشروعًا على السماء والنجوم إلى غير ذلك من الهلوسات التي مرَّ بها كل من قارب الأسبوع بلا نوم.

وفي فترة مثل هذه الفترات ادَّعى أحدهم أني أطيلُ السجودَ لأغفوَ واستريح، ففتح الزنزانة وقيَّدني مع آخرين واقتادني إلى مكان الاغتسال، ثم أفرغ نصفَ علبةِ صابونِ غسيلٍ في طشت وصبَّ عليه الماء بقوة حتى علته وتضخمت رغوةُ الصابون ثم أشار إلى أحد قواطعِ الاستحمام وطلب مني أن أسكبَ الماء والصابون على نملٍ كثير قد انتشرَ في زاوية المكان، فرفضتُ الاستجابةَ لأمره وقلتُ: هذا النمل لم يؤذني حتى أؤذيه، فلن أقتلَ منه نملةً واحدة. فقال مغضبًا: أنا آمرك وأنت ترفض الأمر؟! فقلتُ: نعم، اعتبرني رافضًا للأمر ولن أفعل ولو كلَّفني هذا أن تنزلوني الآن إلى ساحة التعذيب!! فقال: تنزلُ إلى ساحة التعذيب لأجل النمل؟ أنت مجنون افعل ما آمرك وإلا كلمتُ المعلم الآن؟ فقلت: كلِّم من شئت، فلن أقتل منها نملةً واحدةً ولو أنزلتموني إلى ساحة التعذيب الآن؛ لأن هذا النمل لم يؤذني ولم يعذبني ولا عذَّب أحدًا من إخواني ولا حكم بغير ما أنزل الله ولا حرس حدود اليهود ولا قتل إخواننا الذين حاولوا جهادهم، عند ذلك جنَّ جنونه وحمل الطشت بيديه وهو يصيح (بدي ألعن أخت كل النمل) ثم قذف بالماء كله على النمل، وصاح بي: ارجع إلى زنزانتك يا كندرة!! فقلت: كندرة لأجل ديني أما أنتم فكنادرُ لليهود وبساطير للأمريكان، فهجموا عليّ وأعادوني إلى الزنزانة بين الصفع والركل.

عندما رجعتُ إلى الزنزانة كنت أضحكُ في قرارة نفسي وتبدو الابتسامةُ على قسماتِ وجهي المتعب من السهر والوقوف والضرب، وعندما أغلقوا الباب سرحت متفكرًا في النمل، وتذكرتُ نملةَ سليمان –عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام– وأخذتُ بتلاوة آياتِ سورة النمل أتدبرها. لم يكن معي أيُّ تفسيرٍ أرجع إليه، فتوقفتُ عند ابتسامة سليمانَ عند سماعه نداءَ النملة التي حذَّرت بني قومها كما قصَّ الله علينا في سورة النمل: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أخذت أتأملُ الآيات وأسألُ نفسي: ترى لماذا تبسَّم سليمانُ ضاحكًا وشكر ربَّه لما سمع كلام النملة؟ إنه تبسُّمٌ وضحكٌ يعبِّر عن الرضا عن شيء ما، ويعزِّز هذا المعنى ويقويه إتْباعُه التبسمَ والضحكَ بشكر الله، والطلب منه أن يعينه على الشكر ويوفقه إليه، فالتوفيق والإعانة على شكر نعمة الله نعمة زائدة أخرى من الله تحتاج إلى شكر آخر، كما يؤثر ذلك عن أبيه داود. تدبرت الآيات فهداني الله إلى فائدةٍ لطيفةٍ عزيزة أراها متَّسقة مع السياق، وقد أوصى

علماء التفسير حمل معنى الآيات التي تكون حمَّالة أوجهٍ على أحسن الوجوه لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ويقول: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ...﴾ وقد وجدت كثيرًا من علماءِ التفسير ركَّزوا في هذه الآية على فصاحة النملة وعلى تعدُّد أنواع البيان في ندائها، حتى قال السيوطي في (معترك الأقران في إعجاز القرآن) أنها جمعت أحد عشر جنسًا من الكلام، ثم أخذ في تعدادها، وذكر أنها أدَّت بذلك خمسة حقوق؛ حق الله، وحق الرسول، وحقها هي، وحق رعيتها، وحق جنود سليمان. اهـ وهذا قرأته لاحقًا كما قرأتُ تركيزَ بعضهم على معجزاتِ سليمانَ من تكليم الطير ومعرفة لغات الدواب وتسخير الجان له ونحو ذلك، وانشغل آخرون بما لا فائدة فيه من البحث عن اسم هذه النملة واسم قبيلتها ووصفها ومكان الوادي وغيره. ولما كان كلٌّ يبحث عما يهمه ويغلب عليه همُّه فينظر غالبًا من جهته، فيذكره ذلك ويريه من الآيات ما قد يغفل عنه غيره؛ فقد فهمتُ من تبسُّم سليمان –عليه السلام– وضحكه وشكره نعمة الله عليه في هذا المقام أنه كان تحديدًا هنا لإعذار النملة له ولجنده إن هم حطموا من لا يدخل مساكنه من النمل بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فلهذه الأعذار والاعتذار معنى عظيم عند هذا النبي الصالح وقائد المجاهدين الموحدين آنذاك ما يستحق الشكر لله، إذ فيه مدحٌ وثناءٌ وتزكية له ولجيشه حتى من الدواب، فإنه يعني أن سمعة هذا القائد وسمعة جيشه عند كل أحد أنه جيشٌ صالحٌ غير مفسد في الأرض، فهو لا يمكن بأيِّ حالٍ أن يقتل من لا يستحق القتلَ من أي ذي روح ولو كان دويبةً كالنملة؛ اللهم إلا أن يكون ذلك خطأً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أما قتل العمد لغير المقاتل ولا الحربي ولا الصائل أو الضارِّ المؤذي ونحوه؛ فليس قتله من هدي الجيش المسلم ولا المجاهدين. وهذا الهديُ والتوفيقُ إلى التزامه وعدم الخروجِ عن نهجه توفيقٌ ونعمةٌ من الله عظيمةٌ على المجاهدين تستحقُّ أن يشكروا الله وأن يشكرهم الناسُ بل والدواب عليها، فيذكرونهم بخيرٍ ويدافعون عنهم ويحسنون الظن بسيرتهم وجهادهم، كما أن مخالفتها والانحرافَ عنها والتفريط بها مخالفةٌ ومفسدةٌ يستحقُّ صاحبها الذم لأجلها، لأنها مخالفة متعدية لا تضر بالبلاد والعباد وحسب بل تضرُّ بالدين والجهاد وتصد عنه.

تذكرتُ أحوال الصحابة وسيرتهم في جهادهم وفتوحاتهم للبلاد ومعاملتهم للعباد ورحمتهم للضعفاء الكبار منهم والصغار، وكيف انبعثوا هداةً ولم ينبعثوا جباةً ولا عتاة، وكيف كانوا يُبشِّرون ولا يُعسِّرون، وكيف أن هذا لا يُنافي شدتهم وغلظتهم التي امتدحها الله على من يستحقها. وجالتْ في ذهني كثيرٌ من القصص

والأحداث والعبر والمواقف العطرة التي تزخر بها سيرتهم في الأمم وسُطِّرت في تاريخهم المجيد. ثم مرَّت أمام عينيَّ صور تابعيهم وتابعي تابعيهم من الفاتحين والمجاهدين وكيف ساسوا العباد بالعدل وكانوا رحمة للناس أجمعين. ثم تأملتُ سيرة أحفادهم وأتباعهم من أنصار الدين في زماننا في ميادين الجهاد المختلفة شرقًا وغربًا، وما يشهدُ به الأعداءُ قبل الأصدقاءِ من سيرة عطرةٍ وعفةٍ وأمانةٍ وصدقٍ ووفاء بالعهد ورفقٍ بالضعفاء ورحمةٍ بالأطفال والنساء والشيوخ، في مقابل شجاعتهم وإقدامهم وتضحياتهم في ساحات الوغى. وتذكرتُ ابتساماتِ الرضا ترتسم على محيّا كثير من شهدائهم كتبسُّم سليمانَ ضاحكًا رضًا وفرحًا بنعمة الله، فدعوتُ الله أن يستعملني في نصرة دينه بالسنان واللسان كما استعملهم، وأن يرزقني الشهادةَ كما رزقهم، وأن يجمعني بهم في الفردوس الأعلى. ثم تذكرتُ جيوشَ اليهود والصليبيين وما اقترفته ولا تزال تقترف أيديهم من شنائعَ وبشائعَ ومذابحَ ومخازٍ وغدرٍ وفسادٍ في كل بلد من بلاد المسلمين دخلوه خاصة وفي العالم عامة عبر تاريخهم المخزي، فاختلطت صور الغدر ومذابح الصليبيين في القدس بمناظر التشويه والتمثيل في الجزائر وفي أندونيسيا وبورما، وتزاحمت معها صورُ ممارسات أمثالهم اليوم في فلسطين مع ما جرى في العراق في أبي غريب وغيره وما يجري في أفغانستان والقوقاز والشام وما يرافق جيوشهم من نهبٍ وفسادٍ وإفسادٍ ومن تعذيب للأسرى وتمثيل بالجثث وخسَّة وسفالة وعبث في الأجساد والعورات. ثم تذكرتُ كيف تكون نهايةُ كثير من جنودهم حين يكرمهم قومهم بأخس الإكرام إذ يحرقونهم ويلقون بحمم أجسامهم ورمادها في القمامة والزبالة، وقلت: شتان شتان! هذا إضافة إلى حسرات وزفرات الندم التي يُظهرها كثيرٌ منهم في آخر حياتهم، وتذكرت كلامًا لجنديٍّ سابقٍ في الجيشِ رفضت سلطة المياه تمديدَ الماء إلى بيته كون بيته غير مسجل رسميًّا ولم يدفع ضرائب التسجيل إذ يقول بحسرة: (أنا كنتُ ألقم القذائف للمدفعية الأمريكية في أفغانستان والجندي الأمريكي يرمي وأرى بعيوني أجسام الأطفال والنساء والشيوخ وأشلاؤهم تتطاير وأقول: (كرمى لعيون سيدنا) وطلبوا منا أن لا نصلي أثناء وجودنا مع الأمريكان وقلنا: ماشي!! وآخرها ساعة ماء لا يركب لبيتي؟!) ويضرب كفًّا بكف.

ثم تأملتُ في من حولي من عساكر القوانين وأنصار الطواغيت كيف يسهرون ليلهم ويُفنون حياتهم في حراسة القوانين الوضيعة التي تحمي الزنا والخمرَ والربا والدياثةَ والإلحادَ، ويبذلون حياتهم في حراسة حدود اليهود، في مقابل ما يقومون به من تعذيبِ أنصارِ الدين وقتلِ المجاهدين أو التحقيق معهم

نيابة عن الأمريكان، وكيف يكونون كالأسُود على العُزَّل والصغار من أبنائنا ونسائنا وأمهاتنا حين يقتحمون بيوتنا في ساعات الليل المتأخرة مقنَّعين مدجَّجين بأسلحتهم، يحطمون الأبواب ويعيثون في بيوتنا الفساد، فيكسرون ويصادرون ويختلسون بحراسة وحماية قوانينهم، وقارنت هذا الاستئسادَ مع ذُلِّهم لليهود وحراستهم لحدودهم وخدمتهم للأمريكان. وأفقتُ من تأملاتي على صوتهم الذي يصل إليَّ من طاقة الزنزانة المطلة على ساحة السجن وهتافاتهم وصياحهم وتعييشهم وتسبيحهم بحمد ساداتهم أثناء ركضهم وتمريناتهم، فوجدتُ نفسي أهجمُ على الجدار وأقفزُ إلى طاقته وأتعلق بها ثم أهتف بأعلى صوتي: (أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة.. رجال وأبطال على أطفالنا تقتحمون بيوتنا وتروِّعون صغارنا وتشهرون أسلحتكم على نسائنا وأمهاتنا في ظلمات الليالي، أما في الحروب فكالنعاج لا بل كالدجاج) ومددت بها صوتي بأعلى ما أستطيع، ثم قفزتُ سريعًا عن الطاقة منتصبًا في منتصف الزنزانة فيما كانت البساطير تتراكض من كل حدب وصوب من الممرات باتجاه زنزانتي.

وكتبه: أبو محمد المقدسي – سجن المخابرات – زنزانة ٦٤

وإني وإن كنتُ رهنَ القيود   فلي دعوةٌ تتعدى الحدود

وإني بعونِ العزيزِ الحميد   على بيعتي ثابتٌ لن أحيد